الاستشراق الفرنسي والتراث التواتي

"قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبة الله"

فارس كعوان
أستاذ مساعد – قسم التاريخ
جامعة فرحات عباس - سطيف
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
fares_kaouane@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
فارس كعوان ، الاستشراق الفرنسي والتراث التواتي: قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبة الله.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني عشر ؛ يونيو ٢٠١١. ص ٤٢ – ٤٤. (www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

سنحاول في هذا المقال استقراء ودراسة أهم ما جاء في رحلة عالم من علماء توات في عهد الاحتلال الفرنسي ، وبغض النظر عن موقف صاحب الرحلة من الفرنسيين ، فإن رحلته هذه تعد مصدرًا هامًا للتعرف على أوضاع العصر الذي كتبت فيه.

التعريف بصاحب الرحلة

لم نجد لصاحب الرحلة ترجمة في المؤلفات التي رجعنا إليها فلجأنا إلى استخلاص ترجمة موجزة له من خلال ما ذكره بارجيس ، وما أورده المؤلف في رحلته هذه ، فهو سيدي الحاج عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله الشريف التواتي[١] المولود في قرية المتديكات[٢] بمنطقة آولف[٣] ، ونرجح أنه ولد في الثلث الأول من القرن ١٩ م.

ولم تكن توات وقت قيامه برحلته قد خضعت بعد للاحتلال الفرنسي ، ولكن الشمال الجزائري بكامله وقسم هام من الجنوب الشرقي للجزائر قد احتل ، وبدأت اهتمامات الفرنسيين بالتوغل في كامل الصحراء الجزائرية وفي هذا الإطار بدأت اتصالاتهم ببعض الأهالي للتعرف على طبيعة البلاد وسكانها ، وكان صاحب الرحلة هدفا لاتصالات بعض العسكريين الفرنسيين فسافر لتوقرت للقاء الفرنسي Du Coudet المعروف باسم حجي عبد الحميد باي والذي طلب منه تدوين أبجدية التوارق وقائمة بأسماء القادة الأهالي للمناطق الصحراوية وهو أمر كان يهم السلطات الفرنسية في تلك الفترة ، كما كلفه الضابط بواسوني بجمع قائمة بأسماء القادة الأهالي للمناطق الصحراوية. ومن خلال رحلته هذه يبدو أن صاحب الرحلة كان مثقفًا كثير الاطلاع على شؤون الصحراء ، وعارفًا ببعض اللغات واللهجات الصحراوية والإفريقية ، كما يظهر دقيق الملاحظة وصادقًا في وصفه للمناطق التي زارها مما أكسب رحلته أهمية كبرى.

ظروف ودواعي الرحلة

ظلت منطقة الصحراء خلال القرن التاسع عشر محل اهتمامات الفرنسيين ، وتجلى ذلك في الطلب الذي قدمه الامبراطور الفرنسي نابوليون الثالث لدوفيريي Duveyrier الذي كان متواجدًا بغدامس بليبيا بأن يزوده بمعلومات وافية عن الصحراء باعتباره من المهتمين بهذه المنطقة. وكان الفرنسيون يرغبون في استمالة أعيان الصحراء والتعرف بشكل كامل على البنية الاجتماعية والدينية والنفسية لسكانها.[٤]

وقد حرص الاستعمار الفرنسي على ضرب مواقع المقاومة ، حيث اعتصمت عدد من القبائل بالصحراء نظرًا لصعوبة وسطها الطبيعي وجهل الفرنسيين به ، فكان لا بد على هؤلاء في مرحلة أولى التعرف الكافي على الصحراء باستكشاف مظاهرها التضاريسية والمناخية ومواردها المائية الجوفية ، وكذلك دراسة المجموعات السكانية وعاداتها وتقاليدها وتاريخها السياسي والحضاري وإمكانياتها الدفاعية حتى تكون السلطات العسكرية الفرنسية على اطلاع تام بالوسط الذي تنوي اجتياحه ،[٥] وهكذا جاءت رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي استجابة لهذا الغرض.

إن هذه الرحلة التي تمت حسبما ذكر المؤلف سنة ١٢٦٦ هـ/١٨٤٩ م[٦] ودونت بشكل نهائي سنة ١٢٦٨ هـ/ ١٨٥١م قد بدأها صاحبها من مسقط رأسه بتوات متجها إلى توقرت لمقابلة حجي عبد الحميد باي - كما ذكرنا سابقًا- ثم توجه إلى قسنطينة وقدمت له

تعليمات من طرف ضابط المكتب العربي بها وهو Boissonet المعروف عند الكتاب العرب ومنهم صاحب الرحلة باسم القبطان بوسنة.[٧]

وذكر صاحب الرحلة أن هذا الضابط قد أعطاه مبلغ ٥٠٠ فرنك كمصاريف للرحلة ، وأنه قد تبقى له منها مبلغ ١٤٠ فرنك فقرر العودة لقسنطينة ليشتري منها بضائع توجه بها إلى بسكرة ومنها إلى توقرت ، ثم إلى تماسين أين أجرى اتفاقًا مع الشعانبة على أن يصحبهم إلى ورقلة ، ولكن عند الوصول إلى المكان المسمى مطماط على مسيرة نصف يوم من تماسين تعرضت القافلة إلى هجوم شنته قبيلة سعيد أولاد عامر ، فسلبوا القافلة بالكامل ولم يتركوا لصاحب الرحلة غير قميصه.[٨]

وعند وصول أفراد القافلة المسلوبة إلى نقوسة استقبلهم شيخ المدينة وأكرم وفادتهم ومنحهم ثيابًا جديدة ، ومن نقوسة توجهت القافلة ومعها صاحب الرحلة إلى ورقلة ومنها إلى ميزاب ، ثم متليلي ثم القليعة ومنها إلى تيميمون ، وصولاً إلى آولف التي حرر بها نص الرحلة التي تبدو صغيرة الحجم لكنها تحوي معلومات في غاية الأهمية. وقد نوّه بقيمتها مترجمها القس بارجيس الذي قال إنها عمل مفيد ونافع للتعرف على أحوال الصحراء الجزائرية وبلاد السودان الغربي ، كما اعتبر أن الأبجدية الخاصة بالتوارق التي جلبها صاحب الرحلة هي أكمل وأدق أبجدية عرفها الفرنسيون ، رغم الأعمال الهامة حول الصحراء التي قام بها الكثير من الرحالة والمستكشفين.

أهمية الرحلة

١- في الجانب التاريخي:

تقدم لنا هذه الرحلة معلومات تاريخية هامة ، ويبدو أن الرحالة كان ذا ثقافة تاريخية كبيرة وعلى اطلاع واسع بتاريخ المناطق التي زارها ، كما أن فضوله العلمي أتاح له التعرف على أحوال الشعوب التي عبر أراضيها ، فهو يفيدنا مثلاً أن للتوارق حوليات تاريخية وتآليف في فنون أخرى دونوها بخط التيفيناغ.[٩]

ويخبرنا أن مدينة تمبوكتو خضعت قديمًا لسكان آغ راما ثم انتزعها منهم الفلان ثم انتزعها منهم كعو وابنه آن نابيغر ، وبعد ذلك صارت تحت حكم العرب وحكمها أولاد سيدي الشيخ المختار ، وظلت لمدة طويلة محل شد وجذب بين عدد من القبائل الصحراوية. ويقول الرحالة أن أهالي تمبوكتو من الزنوج ليس لديهم كتابة بلغتهم وبالتالي لم يدونوا كتبًا مثل التوارق ، وأن المسلمين منهم يكتبون بالحروف العربية أما الوثنيين فلا كتابة لهم.[١٠]

وذكر الرحالة أن حكم ورقلة كان سابقا بيد أولاد مولاي[١١] الذين جاءوا من تافيلالت وهم من الأشراف ، وأنهم دخلوا في صراع فيما بينهم بسبب التنافس على الحكم ، وأول من حكم منهم ورقلة هو مولاي محمد وخلفه مولاي مسعود ، وبعد وفاة هذا الأخير شغل العرش على التوالي كل من: مولاي الذهبي ومولاي السطيف ومولاي علي ومولاي سليمان الذي توفي بعد سنتين من حكمه ، ثم قدم رجل من أولاد سيدي الشيخ حمزة[١٢] كان خليفة للفرنسيين على تلمسان فاستولى على حكم ورقلة وانضوت قبائل المنطقة تحت لوائه ، ولعب هذا الشخص دورًا محوريًا فيما بعد وذاع صيته حسبما ذكر صاحب الرحلة.[١٣]

ويفيدنا صاحب الرحلة بأن حكم نقوسة قد آل من أولاد بن الأنبابي إلى الشريف محمد بن عبد الله الذي طرد هؤلاء وسلبهم جميع أملاكهم ، واستولى على المدينة وحطم السور المحيط بها.[١٤] ويذكر صاحب الرحلة أنه يوجد جنوب شرق ورقلة وعلى مسافة ساعة من المسير خرائب مدينة قديمة تسمى جالو ، كانت لا تزال توجد بها القصور والنصب العامة وأسواق السكان القدماء ،[١٥] ولعلها تكون مدينة رومانية قديمة.

٢- في الجانب السياسي:

تقدم لنا هذه الرحلة صورة دقيقة للوضع السياسي السائد في المناطق الصحراوية في تلك الفترة ، فقد أفادتنا بأن بعض المناطق ورغم السيطرة الفرنسية عليها ، إلا أن هجمات القبائل على القوافل التجارية المارة بها لم تتوقف وهو ما عانى منه صاحب الرحلة نفسه ، حيث سلبه فرسان قبيلة سعيد أولاد عامر من جميع أغراضه كما سبق ذكره.[١٦]

كما يقدم لنا صاحب الرحلة أسماء حكام المناطق الصحراوية في عهده ، فقد كان شيخ مدينة نقوسة يدعى أحمد بن أنبابي وأعيان عين صالح هم: الحاج محمد بن الحاج أحمد المختار ، والحاج أحمد الحبيب بن الحاج السوغري ، والحاج محمد بن سي ، الحاج أبا جود وأخوه الحاج عبد القادر ومحمد بن أحمد داود وبغدادي بن حمو. وأما مرابطي عين صالح فهم: الحاج محمد الصالح ، وسيدي بن الحاج عبد القادر. وشيخ قبيلة هقان وهي من قبائل كيلا تيتوغا التارقية يسمى آما آسوطان ، وأما شيخ قبيلة تيلا آغريا فيدعى كوعاجي.[١٧] وقادة آولف هم: الحاج محمد كعوي ، والحاج ولد الحاج أحمد بن دحا ، والجيلاني بن البلاّل ، ومحمد بن أحمد الحبيب ، وهم جميعًا من قبيلة أولاد ازنان ، وأما شرفاء آولف وشلي فهم: مولاي علي الشريف ، وسيدي الحبيب بن محرز. وقادة قبيلة أولاد يحي هم: المبارك ولد قوماه ، ومحمد بن الحاج عبد الله الجاوني ، ويعترف سكان ولان بالقادة التالية أسماؤهم: سيدي محمد الوافي بن مولاي أحمد ، ومحمد بن مولاي أحمد بن هيبة ، ومولاي اليزيد بن سيدي الوافي ، وسيدي بن علي الشريف ، ومولاي عبد المالك بن مولاي العربي.

ويقول صاحب الرحلة أن السلطان الحاكم للأراضي الممتدة من جني إلى زبرام قرب سقتو ببلاد السودان الغربي هو السلطان آن نابيغر آق كعو إيغرني آق.[١٨] وتفيدنا الرحلة أن القليعة كان بها سابقا مدينتين لكن بعد ذلك قام سكان إحدى هاتين المدينتين بالسيطرة على الثانية وإبادة سكانها وتحطيم عمرانها عن آخره وقال صاحب الرحله أنه كان لا يزال موجودًا على عهده المنابع التي حفرت في الأزمنة القديمة والتي تجري بمقدار ذراع ونصف فوق سطح الأرض. وكان يقيم بالقليعة شعانبة الماضي وشعانبة متليلي ويعرفون باسم المزارقية[١٩] وكان أهل ورقلة يعرفون بأولاد إسماعيل ، والبقية من سكان ورقلة يعرفون باسم أولاد بوسعيد ، ويشكّل المخادمة المقيمون بأراضي ورقلة ثلاثة قبائل أهمها من حيث المكانة: أولاد أحمد والعرب المعروفين ببني ثور وأولاد نصير. وكان قائد القليعة يدعى سليمان بن ضاوي ، وأما قائد متليلي فهو الشيخ يوسف ، وكان أولاد إسماعيل المقيمون بورقلة تحت قيادة البساطي بن شعيب بن بازوبي ، ويعترف أولاد سعيد بأحمد بن الشيخ بن زواد قائدًا عليهم ، وأما المخادمة فقائدهم هو الشيخ ناصر.[٢٠] وتتشكل العتابة وهي إحدى قبائل ورقلة من أربع قبائل: أهمها من حيث المكانة قبيلة أولاد فضول ، والقائد الرئيسي للقبائل العربية لبني منصور ، والرحابة ، والفتناشة يسمى قدور بن مبارك.[٢١]

٣- في الجانب الجغرافي والاقتصادي:

لقد غلب على هذه الرحلة الطابع الجغرافي الاقتصادي فصاحب الرحلة كان مكلّفا من الضابط الفرنسي بواسوني ومن حجي عبد الحميد باي بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تهم الفرنسيين في هذا المجال ، وهكذا زودتنا هذه الرحلة بمعلومات هامة عن الطرق والمسالك الصحراوية التي قطعها في رحلته وأهم المحطات بها كما يقدم لنا وصفًا لطبيعة الأراضي التي مر بها.

ويذكر صاحب الرحلة عددًا من منابع المياه التي مر بها ففي طريقه إلى القليعة مثلاً رأى بئرًا يسميها الأهالي بئر الزرار ماؤها عذب[٢٢]. كما يذكر أن منابع الماء وفيرة بورقلة وهي مدفونة بالرمل ولا تظهر في الغالب إلا في أماكن محدودة[٢٣]. وفي طريقه إلى بلاد السودان صادف بئرين هما بئر مغندن وبئر تانتيناه.[٢٤] وتفيدنا الرحلة بوجود بحيرة عميقة مائها مالح وبها الأسماك تقع جنوب تماسين بورقلة ، كما تفيدنا الرحلة بوجود بحيرة عميقة لكنها أقل ملوحة يعيش فيها الإوز ودجاج الماء بين توقرت وتماسين.[٢٥]

ويحدد صاحب الرحلة المسافات بين المناطق بمسيرة الأيام ، فيقول مثلاً أن المسافة بين متليلي وميزاب هي نصف يوم من المسير ، ومن متليلي إلى القليعة خمسة أيام.[٢٦] وتفيدنا الرحلة أن هناك طريقًا نهريا هو الأفضل للتنقل من سانساندي إلى شيقو ، وبالنسبة للنواحي الاقتصادية فالرحالة يؤكد وجود بعض الثروات مثل: الطلق والبلور والرخام الأخضر والأحمر والأسود وحجر الشب والكبريت والنطرون والملح ، ووجود عدد من المعادن والأحجار الكريمة وأحصى الرحالة (٢٥) نوعًا من الأحجار الكريمة وذكر أنواعها والاختلافات الموجودة بينها.[٢٧]

ويذكر الرحالة كذلك أسماء النباتات والأشجار التي تنمو بالمناطق التي زارها ، ويقدم لنا أسمائها بلغات تلك المناطق ، كما لم يكتف بذلك بل وضّح حتى المنافع الطبية لعدد منها.[٢٨] وفي الجانب الاقتصادي أيضًا تفيدنا الرحلة بوجود الأسواق الكبيرة في تيميمون والتي يرتادها رجال سي الشيخ وحميان الشراقة وأولاد زياد ، والدراق وزراين ، والظراف ، والغياشر ، وذوي أولاد سي الشيخ ، وأحمد ولخضر والشعانبة.[٢٩] وبتوات عدة أسواق تجارية أهمها تيميمون شمالاً ، وفي الغرب سوق تيمي ، وبتيمي (٢٥) قرية يرتاد أسواقها الفلان وأهل الغرارب "غرب إفريقيا" ، ويرتاد سوق قصر تمنطيط أهل ساهل ، والعرب ، والبدو ، والجكانة ، وأولاد الحاج وسكان سوف.[٣٠]

الخاتمة

في ختام دراستنا هذه نخلص إلى أن رحلة سيدي الحاج عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله الشريف التواتي من توات إلى ورقلة ومنها إلى بلاد السودان ، هي رحلة لا تخلو من فوائد تاريخية وجغرافية هامة ، وأن صاحب الرحلة لم يكن يقدم وصفًا تقليديًا للمناطق التي زارها ، وإنما حاول على قدر الإمكان تقديم معلومات دقيقة ، وإننا إذ نأسف لضياع النص العربي لهذه الرحلة فإننا متفائلون بأن يظهر هذا النص في إحدى الخزائن الخاصة بتوات فيضيف إلى التراث التواتي مصدرًا في غاية الأهمية.

الهوامش

1- L'Abbé Barges : Le Sahara et le Soudan : documents historiques et géographiques , Paris, Just Rouvier libraire-éditeur 1853, p 7.

2- كذا وردت عند بارجيس Mettediccat ولعلها تيديكلت.

3 - L'Abbé Barges : Opcit,p 4.

٤-أحمد مريوش: التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري وردود فعل سكان الهقار ١٩١٦ ، مجلة المصادر عدد ١١ السداسي الاول ٢٠٠٥ ، ص ١١٥.

٥- التليلي العجيلي: دور بعض مشايخ الطرق الصوفية في مساعدة الفرنسيين على استكشاف الصحراء الإفريقية في النصف الثاني من القرن ١٩ ، المجلة التاريخية المغربية السنة ١٦ ، العدد ٥٣ ، جويلية ١٩٨٩ ، ص ١٤٣ - ١٤٤

6 - Ibid, p 13.

٧- ذكره المؤلف في رحلته هذه أيضا باسم أبو حسن وقد عرف عن الضابط بواسوني اهتمامه بتعلم اللغة العربية وتشجيعه للكتاب على التأليف التاريخي كما حصل مع صالح العنتري مؤلف الفريدة المنسية.

8 - L'Abbé Barges : Opcit,p 5.

9 - Ibid, p 6.

10 - Ibid, p 10.

١١- يقصد بهم بني جلاب سلاطين توقرت ، ولا يقدم الرحالة قائمة مضبوطة وكاملة لهؤلاء ، انظر حولهم العمل الهام الذي أنجزه الضابط فيرو.

L.C.Feraud : Les Ben Djellab Sultans de Tougourt,in R.A 1886 pp 374 - 391 et pp 419 - 439.

١٢- كان أولاد سيدي الشيخ قد أعلنوا في البداية ولائهم للأمير عبد القادر لكنهم انضووا بعد دلك تحت لواء الفرنسيين ، واستعانت بهم فرنسا للتوسع في الجنوب ، حيث عينت سيدي حمزة ولد أبي بكر بعد مساموات ومشاورات خليفة على الجنوب الجزائري سنة ١٨٥٠ ، أنظر: إبراهيم مياسي: من تاريخ أولادي سيدي الشيخ "الثورة الأولى: ١٨٦٤-١٨٨١" مجلة الثقافة ، السنة ٢٢ ، العدد ١١٤ ، ١٩٩٧ ، ص ١١٩.

13 - Ibid, p 17.

14 - Ibid, p١8.

15 - Ibid, p١8.

16 - Ibid, p 5.

17 - Ibid, p 6.

18 - Ibid, p 10.

١٩- وردت عند بارجيس بصيغة بزاريقة وهي خاطئة ، ويذكر فيرو أن السلطان الجلابي علاهم الذي حكم ورقلة سنة ١٦٠٢ قد اضطر للاستعانة بشعانبة الزريبة الدين قدموا إلى ورقلة بحثًا عن المراعي وشكل منهم مزارقية أي حراس بالرماح لحمايته من اعتداءات القبائل البدوية الأخرى ، أنظر:

L.C.Feraud : Les Ben Djellab...Opcit,p374-374

20 - Ibid, p16.

21 - Ibid, p17.

22 - Ibid, p 6.

23 - Ibid, p18.

24 - Ibid, p 8.

25 - Ibid, p 19.

26 - Ibid, p 4.

27 - Ibid, p 11.

28 - Ibid, p 13 — 14.

29 - Ibid, p 5.

30 - Ibid, p15.